

# الفصحى وكيف نشد أزرها

بفلم على النجدي ناصف

مفتش المعارف بالإسكندرية

لغة الأمة سجل حياتها، الجامع لعلومها وفنونها، وترجمتها المعبر عن آمالها وعواطفها؛ فلا جرم أن تعنى الأمم الحية بلغاتها، كما تعنى بأجل مرافقها شأنًا، وأكثرها عائدة. فلا تزال تتعهد بما يكفل لها اطراد الحياة والنمو، ويسر للناس أسباب حذقها، واجتلاء نفائسها. ويجعلها مرنة طيبة: تجارى العصر، وتغنى بجميع مطالب التعبير. ثم هى بعد لا تدخر حول ولا حيلة لنشرها فى الناس على اختلاف أجناسهم، فإن فى ذلك نشرًا لثقافتها، وعونا على تغليب صبغتها، وتقريب شقة التقاطع بينها وبين غيرها، وكسب أعوان ومريدين فى شتى الأرجاء، يكون لكل جمهرة منهم مالل رأى العام من القوة والتأثير.

وعلى قدر نصيب الأمة من ذلك يكون نصيبها من أسباب النجاح فى الحياة فإن الثقافة صلة مرعية، تربط المتخرجين فيها برباط محكم. وإن اختلفت أهمهم وأجناسهم، حتى لقد يعد الأجانب منهم — الأمة التى تزودوا بثقافتها أمة لهم أخرى، ويعدون بلادها وطنهم الفكرى الذى يغذو عقولهم، ويمتج نفوسهم، ويوجه تفكيرهم، ويطلع أذواقهم بطابعه. وهل هذا الذى نشهده فى مصر بعض الأحيان من الانحياز والتعصب، أو المنازعة والخلاف على الثقافتين الإنجليزية والفرنسية إلا أثر لشيوع الثقافتين بيننا، وإعجاب كل امرئ بالثقافة التى أتاحت له منها؟ أم هل هذا الذى نراه فى فريق منا من الشعوية الغالية فى التعصب على العرب والعربية، العاملة على الإضرار بهما، وإرجاع كل مزية فيهما لملى أصل أجنبى صدرت عنه، أو اقتبست منه، إن حقًا وإن باطلا — هل هذا كله إلا تاج ما أسلفنا، وظاهرة من ظواهره؟

وللعربية سبب آخر يجعل العناية بها أوجب وألزم: أنها لغة الدين الحنيف والقرآن الكريم، تؤدى بها بعض المناسك، ولا سبيل إلى استنباط الأحكام،

وتفهم أstrar التنزيل وإدراك إعجازه إلانها . لهذا بقيت بحمد الله إلى اليوم صلة كريمة تربط الخلف بالسلف ، على تقادم العهد ، وواشجة موضوعة بين أمم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . فنحن اليوم نفهم السابقين الأولين من الأدباء والمؤلفين كما نفهم أمثالهم الذين يعيشون بين أظهرنا ، لحرص القوم فى كل عصر على سلامة اللغة ، ومنع الهجين أن يداخل الخالص ، ويتزيا بزيه ، ويجرى مجراه إلا نادرا جدا فالعربية أمانة يجب أن نرعاها حق رعايتها ، وأن نورثها أبناءنا كما ورثناها نقية خالصة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فإذا كان من أسباب نمو اللغات الأجنبية تقارض الالفاظ ، وتقبل المصطلحات ، أيا كان نسبها فإن هذا السبب على إطلاقه غير سائغ ولا مقبول فى تنمية العربية ألبتة . ولعله الآن أشد ما يكون استحقاقا للمجانبة والنقي ، أن كان العصر عصر الكشف والمخترعات المتلاحقة فى العلوم والفنون والصناعات ، وحظنا من ذلك لا يذكر إلى جانب حظوظ الأمم الأجنبية منه . فإذا نحن فتحنا باب الاستعارة والقرض - نسلك إلينا العجمة من كل حدب ، ودخلت علينا من كل باب ، وصرنا مع الزمن إلى رطانة شوهاى ممسوخة لاعربية ولا أعجمية . وهنالك تقطع الصلة بالدين ، ويستغلق فهم مصادره ، ويتدابى الماضى والحاضر ، فإذا نحن أمة بلا لغة ولادين ولا ماض مفهوم ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله سبحانه السلامة والعصمة .

لذلك جاء قرار المجمع اللغوى فى هذا الصدد حكيما غاية الحكمة ، سديدا السداد كله .

أما دعاة الإباحية فى اللغة فدأبهم فى هذا الموقف كدأبهم فى المواقف الأخرى ، يظنون التجديد الذى يتشدقون به - إنما هو تعدى الحدود القائمة ، وانتهاك الحرم المصونة فى غير وعى ولا نظر إلى العواقب . وماذا يعنيه إذا اندفعت العجمة سىلا جائحا يكتسح ما يكتسح . ويفلت منه ما يفلت ، ما دام فى هذا وحده فكا كه من معاناة التحصيل ، وتخلصهم من معرة الجهالة والفتور ؟ وإذا لم يكن هذا هو دأهم الذى يزين لهم ما يدعون إليه من خطل . فماذا عسى أن

يكون؟ أترام يريدون عن عمد تغليب الأعجمية على العربية، كما غلبت الصبغة الغربية على بعض مقدماتنا، وتريد أن تلتهم بعضا الآخر لنكدين في الناس مسخا غريبا. لاشخصية له ولا نظير؟ أم ترام يريدون خير اللغة، وأن تكون وافية بحاجة العصر وما يجد فيه؟ إن كان هذا مرادهم - وهو ما يزعمون فيما نرجح - فهاهم أولاء علماء العربية وسدنتها المنقطعون لتحصيلها وخدمتها، قد كفلوا أن يبلغوا بها هذا المبلغ مستغنين بأغلقها المكنوزة، وتقائسها المجفوة المهجورة عن الاستعارة والقرض ما أمكنهم الاستغناء غير ضائين بمجهود، ولا مبالين عنتا ولا رهقا.

وهذه مجلة المجمع، وما يشابهها من المصنفات التي تقدمتها - تزخر بنتائج بحجم وتقصيلهم، وتشهد بوفرة مادة اللغة، واتساع فجاجها، فليهنئوا إذا كما هنيء غيرهم بما يزجي إليهم عربيا خالصا، لا هجنة فيه ولا دخل. وما أظن إلا أنهم موافقون على أن الرجل الذي لا يستكف من القرض، وهو قادر ببعض الجهد أن يستغنى، يكون أمرا تكله، ضعيف الهمة، قليل الاعتداد بالكرامة والعزة.

\*\*\*

إن في البلاد اليوم - ولا مرأى - نهضة فكرية مباركة، تبدو دلائلها في كثير: تبدو في المجمع اللغوي وبحوثه المستفيضة، وتحقيقاته الممتدة، وقراراته الحكيمة المنتجة، وتبدو في هذه المؤلفات القيمة وفي الصحف والمجلات الجديدة، بما تتناول من الموضوعات الجليلة، وتنشيء من المقالات والبحوث في شتى النواحي: بحثا، وتحليلا، ونقدا، وفي المعاهد العلمية والدينية وإصلاحها مناهجها وتقويم خطط الدراسة فيها، وكثرة من تخرج من العلماء والأدباء، وفي هذا التعاون الكريم على بحث مصادر الأدب والتاريخ، وإخراجها في صورة جذابة شائقة، توافق روح العصر، وتسائر النهضة، بما يجتمع فيها من أناقة الطبع، وصحة الضبط، وتيسير الافادة، وفي فرقة التمثيل القومية، بما تتخير من الروايات ذات الشأن، وما تلتزم في لغتها من صحة البيان، وفصاحة المنطق محاورة وإلقاء. نعم تبدو النهضة الفكرية في ذلك كله وفي غيره، لكنها على تهيئتها وتمشي الحياة فيها، تحتجن الانتفاع ببعض ثمارها من ناحية. ويخالطها بعض شوائب

مستكرمة من ناحية أخرى، فمن الخير أن نعمل على إشاعة الاتّفاع بالأولى ما أمكننا العمل، وأن نسل من الأخرى شوائبها في غير هواة ولا إبطاء؛ فانما هي بوادر التشكى تظهر في بيئة الحى أول أمرها واهنة غير بادية الأثر، ثم تصير بالإغضاء وقلة الإكتراث مرضا يخشى شره وربما استعصى علاجه.

فهذه الألفاظ والمصطلحات التى يستبدل بها بجمع اللغة ألفاظا ومصطلحات أخرى حديثة، يجب أن يتداولها الاستعمال، وأن تنبأ أمكنتها في لغة الدواوين ومصالح الحكومة، وفي الترجمة وكتابة الصحف، وكتب الدراسة وإنشاء الطلاب، حتى تدب فيها الحياة، وينفسح لها المجال. فنذهب في شتى المطالب كل مذهب، وتجول هنا وهناك، فسيغها الأذواق، وتألّفها الآذان، وتزكو بها اللغة. أما أن يعمل الجمع ويبحث، لتدون نتائج أعماله ويبحث في المجلة وكفى، فإضاعة لجهوده، وصد عن أداء رسالته. وما أشبه الكلمات والمصطلحات التى يقرها حيثئذ بالجنين يولد ميتاً، أو يواد قليل أن يعمل في الحياة عملاً، أو يخلف فيها أثراً، وجدير بحضورات المدرسين - مهما تكن العلوم التى يعلّمونها - أن يثيروا في التلاميذ عاطفة الاعتزاز بقوميتهم ولغتهم، وأن يكونوا قلوبهم الصالحة في بجانبية العامية، والتزام الفصيحة في الحوار والالقاء، ما أمكن ذلك، ليعتادوها قولاً واستماعاً.

أما ما يجب أن تخلص النهضة من شوائبها، ونعمل متعاونين على تطهير اللغة منه، فاللغة العامية. نعم، فلا يزال لها فينا أنصار ينبعون بها، ولا يستحيون أن يجهروا باصطناعها، حتى في المواقف الجليلة، التى يجب في شرعة الذوق والكياسة أن تنزه عنها. أولئك هم كتاب الأدب الماجن ومثله، والمتصدرون لخطاب الناس بالوحى، من المتطرفين.

ولا ندرى ماذا على أولئك الكتاب والممثلين لو بدلوا بعاميتهم المبتلة عريّة شريفة لا عجمة فيها ولا عوج؛ إثارة للخير العام، وتسامياً بالدهماء إلى الفصيحة؟ إنهم لجديرون أن يرعوا في أعمالهم خير أمهم وبلادهم، كما يرعون فيها خير أنفسهم، فلا يقفون مواهبهم وجهودهم على تملق الدهماء وإرضاء نوازى

التبطل والاستهتار في نفوس الخليلين والمجان. هم جديرون أن يذكروا في كتابتهم وتمشياتهم أنهم إنما ينزلون من جمهورهم بمنزلة المعلمين من التلاميذ، فليتقوا الله إذا في تلاميذهم، وليجعلوا الغاية التي يسعون إليها نعمة الله هي الثقيف والتدب والدعوة إلى الخير والرشاد.

وإذا كان هذا النمط من الأدب الفكاهي لا يقع أول الأمر من المتفرجين بموقع القبول والاستحسان؛ لاعتيادهم النكتة اللفظية تهزهم هزا عنيفا، وتأخذهم بالطرب والإضحاك أخذاً شديداً. فإنهم بالرياضة وطول التمرس يحققون أن يألفوه، ويسكنوا إليه. على أن في مفارقات الوقائع وصور الأخيلة الهزلية العابثة غناء عن هذا وعرضاً منه.

أما السادة المتظرفون، من المتصدرين للحاضرة أمام المذيع - فلا أدرى والله ما لهم لا يريدون أن يعلم الناس عنهم أنهم أصحاب ذوق سليم، يحسنون التفرقة بين المواقف المختلفة، ويعلمون أن لكل مقام مقالا، وأن العامة إذا خفت على السمع، وساعت في الذوق لغة للتخاطب والتفاهم في الأسواق مثلاً، فإنها في مواقف الخطابة والتصدي للحاضرة لتثقل على السمع جداً، وينفر منها الذوق السليم أشد النفور. وما مثل هؤلاء في هذه المواقف، إلا كمثل الرجل يتوقر في أسبابه، ويوهم الناس بظاهر حاله أنه متصون محتشم، يحاول جدا من الأمر، حتى إذا اجتمعوا له، وهيثوا أنفسهم لما يأتيهم به، واستوى هو في مكانه، راح يرميهم بالهزل القبيح. ويأخذهم من حيث لا يحتسبون بالسخف والابتذال، بل ربما كان في هذه المباغثة ما يخطئ أصحابنا المتحدثين بالوحي من بعث الانبساط، وإثارة الضحك والارتياح في السامعين.

ويدخل في زمرة هؤلاء فريق آخر، يتحدث بالعربية الصحيحة المبنى والعبارة المحرقة الشكل والاعراب، فيصك الآذان صكاً شديداً بلحنه واعوجاج منطقته. ولا أدرى ماذا على هؤلاء لو التمسوا صلاح أحاديثهم واستقامة لغتها عند أهل لمعارفة باللغة، والبصر بصحتها ومحرقتها؟ أم يظنون المسألة كلاماً وكنى، كيفاً

كان ، وعلى أى حال تها لهم ؟ أم أنهم ينجلون من طلب الخلاص من هذه  
 المعرة عند بعض الناس ، ولا ينجلون من إعلانها على رؤس الأشهاد ؟  
 والأغاني كذلك بحاجة إلى الإصلاح معنى ولفظا ، فقد أصبحت لا تلائم  
 عصرنا ، ولا تتفق مع نهضتنا الحاضرة ، لأنها فى الغالب رخوة مهتكة .  
 لا تصدر عن نفس جادة أيدة ، تجانس العصر ، وتستطيع الاضطلاع بأفقال  
 الحياة الحاضرة . ولغتها قل أن تبرأ من العامية ، بل العامية السمجة الوقاح .  
 إنها يجب أن تكون كلها شعرا رقيق العبارة ، سهل المأخذ ، خفيف الوزن  
 ينظمه شعراؤنا المطبوعون ، الذين مرنوا على علاج هذا النوع ، وألفوا  
 اصطناعه . وهم بحمد الله غير قليل ، فهذا اللون من الأغاني جذاب الموسيقى ،  
 هين التطريب ، مطاوع التوقيع ، شديد الأثر . وهو فوق ذلك عون على إذاعة  
 الفصيحة ، ورواج سوقها .

ومن منا لا يشيع فيه الطرب ليس أبلغ منه حين يسمع : مالى فتنت  
 بلحظك ، أو : أفديه إن حفظ الهوى ، أو نحوهما من الأغاني الشعرية الراقية ؟

على النجدي ناصف